

بينما كان عشرات الآلاف من الأرجنتينيين يملؤون استاد مونومينتال عام ٨٧٩١ وتعالى صرخاتهم وتشجيعاتهم في نهائي كأس العام الذي نظمته الأرجنتين حينها وفازت به أيضاً، كان هناك أيضاً على بعد كليومترات قليلة عشرات الآلاف من الشباب الأرجنتيني يعذب ويُقتل ويُشرد في أشنع سجون عرفتها القارة اللاتينية.

كان هذا بعد سنتين من وصول الطاغية قائد الجيش الأرجنتيني "فيديلا" للحكم عبر إنقلاب عسكري بدعم كبير من المخابرات الأمريكية على الرئيسة الأرجنتينية المنتخبة "بيرون" أطلق بعده يده الباطشة لتقتل وتعذب وتختطف وتسجن وتخفي كل من تسول له نفسه مواجهته والوقوف أمامه.

لجأ (فيديلا) وبتنسيق ودعم أمريكي كبير كشفت عنه بعض وثائق الويكلييكس مؤخراً عن استخدام سياسي بشع للخادعة المستديرة كوسيلة لإلهاء جموع الشعب الأرجنتيني وإدخاله في دوامات مخدرة كي يتعامى ويتناسى جرائمه التي طالت قطاعات ضخمة من الشعب الأرجنتيني؛ وصارت هذه البطولة التي نظمتها الأرجنتين أسوأ مثال تاريخي في استغلال الرياضة سياسياً، وهو ما دفع بعض العقلاء حينها للدعوة لمقاطعة هذه البطولة، والدعوة للارتقاء قليلاً من قاع التغيب والجهل للوقوف على حقيقة واقع مرير تعيشه الأرجنتين النازفة حينها، على الأقل احتراماً للمفقودين، ولكن تاهت وضاعت هذه الأصوات الخافتة وسط هدير معركة الكرة، حيث لا صوت يعلو فوق صوت الاستغلال السياسي للشعوب المقهورة.

وُصفت فترة حكم فيديلا بأنها فترة سوداء، لكن ظل أسود ما في هذه الفترة هو مشهد صرخات الآلاف من الأرجنتينيين داخل المدرجات وخارجها بينما كان العجائز من أمهات المفقودين من الشباب الأرجنتيني يبكين وهم سائرات في شوارع الأرجنتين حاملات لصور أبنائهن دون أن يلتفت إليهن أحد، حتى اضطرن للوقوف أمام قصر الطاغية فيديلا نفسه في ساحة ماي، وتندرت عليهم صحف إنقلاب فيديلا وأطلقوا عليهم "مجنونات ساحة ماي" للسخرة والاستهزاء من مطالبهم.

ظلت كرة القدم تلهم الرياضة المحببة للجميع كباراً وصغاراً، شرقاً وغرباً، منذ نشأتها العوبة في يد الساسة خاصة في دول العالم الثالث المتخلف في كل شيء، حتى نستطيع أن نقول بكل أريحية أن كرة القدم هي اللعبة الوحيدة التي بدأت رياضية وسرعان ما تحولت إلى أداة سياسية من أهم وأبرز أدوات السيطرة والهيمنة والإلهاء وتمير الفشل والاختفاق. فلم تبتعد السياسة يوماً عن الساحرة المستديرة، وكما يقول الكثيرون فإنها أصبحت وجهاً آخر للسياسة، حتى تحولت الملاعب إلى ساحة مصغرة للصراعات السياسية بل والعسكرية أيضاً.

كالحرب التي وقعت بين دولتي السلفادور وهندوراس والتي سميت "حرب كرة القدم"، حيث عانت العلاقات بين الدولتين توتراً واضطرابات كبيرة قبل المباراة، لأسباب اقتصادية وديمغرافية.

وفي تصفيات بطولة كأس العالم بكرة القدم لعام 0791، دخلت هندوراس والسلفادور في مواجهة حاسمة وفازت السلفادور 3/2 في الوقت الإضافي، فصعدت إلى الدور النهائي للتصفيات. نزل الآلاف من أهالي هندوراس إلى الشارع غاضبين، وراحوا يعتدون على الفقراء السلفادوريين المقيمين عندهم، وتطورت الأمور إلى مهاجمة أحياء يقيم فيها السلفادوريون، ممن اضطرت معظمهم للفرار إلى بلادهم تاركين ممتلكاتهم وبيوتهم، واندلعت الحرب. وبدأ القتال فجأة برأً وجواً في 14 يوليو 9691، وانتشرت القوات البرية للجيشين على طول الحدود، وبدأ القصف المدفعي عشوائياً من الطرفين على القرى والبلدات في البلدين، استمرت الحرب 100 ساعة وانتهت بقتل أكثر من 4000 إنسان، معظمهم مدنيون، ومعهم 10 آلاف مشوه و021 ألف مشرد، ودمار مئات البيوت والمنشآت التي تزيد قيمتها اليوم على ثمانية مليارات دولار، وعرفت هذه الحرب العجيبة باسم (حرب الكرة).

فالاهتمام الكروي الزائد عن الحد قبل مرحلة الثورات العربية في منطقتنا الإقليمية إلى درجة التحزب والعنف إنما كان تعويضاً لاشعورياً عن التغيب السياسي، وإبعاد الناس عن العمل السياسي، واستئثار الحزب الحاكم بالسلطة، ومعرفة نتائج الانتخابات مسبقاً، أغلبية مطلقة للحزب الحاكم عن طريق التزوير وإبعاد المعارضة الإسلامية والليبرالية

عن المجالس النيابية .

والتحزب للنواذى المنافسة إنما هو تعويض عن المشاركة والعمل السياسي . كما أن قدرة التحزب الكروى على تجنيد الجماهير تعويض عن قدرة التحزب السياسى والمعارضة الفئوية وحشد الثورة لطاقت الجماهير، فالحضور الطاغى للكرة تعويض عن الغياب الطاغى للسياسة ما قبل الثورة.

وكانت الدول تشجع مثل هذا التحزب الكروى بتجنيد أجهزة الإعلام التى تحت سيطرتها لهذا الغرض، بل إن ظاهرة «الألتراس» وهو لفظ معرب عن اللفظ اللاتينى ultra بمعنى الحد الأقصى أو الذروة، هم الشباب الشديدي الولاء لأنديتهم الرياضية، كان تعبيرا عن هذا التحشيد في الميدان الذي تريده الأنظمة والحكام ، فى حين أن العمل الدينى السياسى مرفوض ، ومع هوس التشجيع الكروى يخرج الملايين الى الشوارع وفي عيونهم لمعة الانتصار، كرنفال يجوب الشوارع أو خيبة أمل وانكسار في القلوب، مشهد يتكرر في كل دول العالم بلا استثناء عقب الفوز أو الخسارة في مباراة كرة القدم.

حيث يفسر علماء الاجتماع شعور الجماهير بهذا الانتصار عقب الفوز في مباراة كرة القدم، بأنهم يشعرون بروح الجماعة والانتماء، وبالقوة وبأنهم قادرين ومؤثرون. ورغم الظروف المادية السيئة يخرج الملايين من الكادحين والفقراء إلى الشوارع غير مبالين رافعين رايات النصر، هو ما تعوضه لهم اللعبة من افتقاد القدرة على تحقيق أحلامهم وأهدافهم، وفقدان الإمكانيات الفردية والجماعية وعجز النظام السياسى على تلبية احتياجاته، فيشعر المواطن الفقير أنه حقق كل شيء من خلال الروح الجماعية في المباراة ، والشعور الزائف بالانتصار في واقع مليئ بالآخفاقات والانكسارات ، تماما مثل الشعور الذي توفره المخدرات والمسكرات .

ومع تطورات الوضع الإقليمي والدولي تحولت الكرة لمضمار جديد في اللعبة الدولية، فتحوّلت من أداة للسيطرة والهيمنة والإلهاء الداخلي للشعوب المقهورة بالنظم الفاشلة والقمعية ، تحولت لأداة للابتزاز والضغط الدولي ، فزلزال من العيار الثقيل ضرب أركان الاتحاد الدولي لكرة القدم، وذلك بعد أن أفاق العالم على خبر توجيه القضاء الأمريكى تهمة التآمر والفساد إلى 9 مسؤولين منتخبين بالفيفا، بالإضافة إلى 5 مسؤولين كبار ، مع العلم أن هذه أخبار هذه الفضيحة كانت معروفة للجميع ، ولكن كان يتم تجاهلها لحسابات سياسية أيضا ، وقد تم الكشف عنها في الوقت المعين الذي احتاجت فيه أمريكا والغرب الضغط على روسيا بسبب أزمة أوكرانيا ، وعلى قطر بسبب مواقفها من الانقلاب العسكري المصري وسوريا . وبالفعل بدأت الأصوات تتعالى مطالبة بسحب تنظيم كأس العالم من روسيا وقطر ، في واحدة من أقوى أوراق الضغط الأمريكى على روسيا وقطر .

وعلى الرغم من الاستغلال السياسي البشع لأشهر رياضة شعبية ، إلا إن لعبة الكرة تظل أشرف وأرقى وأضبط من كل الممارسات السياسية في الدول الاستبدادية القمعية في محيطنا الاقليمي . ففي كرة القدم ينبغى أن يكون اللاعب موهوبا، وذلك فى بلادنا العربية ليس شرطا تلك المهارة فى السياسى، الذى تتدخل فى اختياره عوامل أخرى مختلفة، عائلية أو مالية أو علاقات شخصية أو تكتلات مؤسسية .

أيضا اللعبة فى كرة القدم لها قواعد وقوانين وخطط ينبغى أن يلتزم الفريق بها حتى يضمن الفوز، أما السياسة عندنا فهي بلا قواعد أصلا، وكثيرا ما يكون مزاج الحاكم هو الفيصل فى أمور كثيرة، ثم لا تنس إنه سيد قراره، بمعنى أنه من يضع القواعد والقوانين التى تناسبه. فى الكرة لا مكان لواسطة أو وراثة أو أى اعتبار آخر غير الكفاءة، فى حين أن هذه المعايير مستبعدة تماما من عالم السياسة، لذلك فإن أى موهوب يمكن أن يكون لاعبا كبيرا، لكن ذلك ليس حاصلًا فى السياسة المحصورة فى شرائح بذاتها. فى الكرة والرياضة عموما يتم اللعب على المكشوف، والجمهور هو الحكم والفوز يقاس بتحقيق الأهداف، التى يراها الناس بأعينهم.

أما السياسة عندنا فهي تنتمى إلى عالم الأسرار والألغاز، وأهم قراراتها تطبخ فى الظلام، والجمهور يتلقى ولا يشاهد، ولا رأى له فيما يحدث، أما الفوز فوسائل الإعلام هى التى تعلنه وتسجله وتصر عليه، حتى إذا لم ير الناس له أثرا .

فى كرة القدم استمرار المدرب فى موقعه مرهون بقدرته على الإنجاز، وفشله يفقده منصبه وإنهاء عقده، أما فى

السياسة بالفشل لا يرتب أى مسئولية أو حساب، لأن العبرة فى السياسة ليست بالإنجاز أو القدرة، لكنها بقوة السند. فى الملعب تسعد الجماهير بمواهب اللاعبين الموهوبين ولمساتهم الفنية، ويهتفون لهم مشجعين وهم يستمتعون بمهارات هؤلاء اللاعبين. وعندما تغادر الجماهير الملعب تستمر سعادتهم باللمحات الفنية والجمالية للأداء فى الملعب.

أما فى السياسة، تخرج الجماهير وتهتف بالروح والدم، حتى الطفل فى بطن أمه يهتف بالروح والدم، وعندما يذهبون إلى بيوتهم يلعنون اليوم الذى جاء بالـ"مهتوف له"، ويلعنون أيام وليالي عهده السودا .
لذلك فالكرة رغم كل مساوئها فهي أشرف بكثير من السياسة هذا الزمان.

كاتب المقالة : شريف عبدالعزيز

تاريخ النشر : 27/07/2015

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammdfarag.com